غادة السمان

السباحة في بحيرة الشيطان

المخدر

لا تصلبوني من زعانفي

لا تصلبونـــي من زعانفي ! . . .

قلت للطبيب : بل الفضل اجراء العملية بعد تخديري كليا . . .

قال بدهشة : تخدير كلي من اجل عملية بسيطة تكاد لا تحتاج الى بنج موضعي ؟

تخدير كلي من اجل اللاشيء ؟ هذا أمر لم اسمع به طيلة حياتي . . . هل تعرفين معنى البنج الكلي ؟ انه بحاجة الى مستشفى ، وقاعة عمليات ، وطبيب خاص للتخدير ، وجيش من الممرضات ، وخمسة أضعاف الكلفة العادية ! . . . وستدخلين في تاريخ الطب كأول انسان يخدر كلياً لأجل هذه العملية التافهة !! . . . .

قلت : إنني أصر على البنج الكلي ، وسأدفع التكاليف .

قال : ولكنني أخجل من إجراء عملية تافهة كهذه مع تخدير كلي ! . . انك تحرجينني مهنياً .

قلت : اعرف انني كمن يستأجر طائرة فانتوم لنقل أرنب الى سيرك لكنني اصر . أصر متوسلة !! (لم أجرؤ على القول بأنني أرغب في تجريب مشاعر الانسان في لحظات السقوط في الغيبوبة ولحظة الخروج منها . . . الى أين نذهب أثناء الإغماء ؟ وماذا يحدث (للروح) عندئذ ؟ لم أجرؤ على قول ذلك كله . . ولا سواه عن فضولي نحو تجريب كل شيء !) .

. . . وقال لي الطبيب السويدي قبل تخديري يحدثني عن بلاده وجمالها الطبيعي وسهوبها وجبالها ووديانها : فكري بشيء جميل . . . فكري بالانهار . . . بالجبال . . . بالبحار . . . بعالم تحبينه . . .

ومع وخزة الابرة بدأت تجربة جديدة مثيرة لم أذق لها طعماً من قبل . . . انطفأت كل اضواء غرفة العمليات ، وكل الوجوه التي كانت ملتفة حولي ورحلت الى حيث لا أدري ولا أحد يدري . . . كل ما اذكره هو حس بالضيق لأن الكرة الارضية تدور ولأنني مقيدة إلى أحد جوانبها لسبب مجهول ، وخيل اليّ أن ذلك سوف يدوم الى الابد ، ولم أكن أحس في تلك اللحظة بماهيتي البشرية أو بأية ماهية ، وانما غمرني شعور غامض بالضيق والرعب والسقوط في فخ من العذاب الرتيب الذي لا نجاة منه ، والدوار الذي هو أقرب الى السقوط المتوالي منه الى الدوار . . .

ثم بدأت أعي انني سمكة ، ولكنني مقيدة إلى الكرة الارضية وأريد أن انطلق منها وأن يفك أسري لأعود الى البحر ، الى البحر اسبح في البحر الواسع الحنون ، ولم يكن البحر في خاطري زرقة أو أمواجاً ، وانما كان سائلا حنون الدفء شاسع الاتساع ، فيه وحده أجد الحرية التي قضيت عمري ابحث عنها . . . وللحظات شعرت انني سمكة وطليقة وحرة واسبح باسترخاء مذهل المتعة ، ثم بدأت أميز أصوات العالم الخارجي وبدأ معه عذاب الوعي فقد سمعت الممرضة تقول أنه يجب منعي عن تحريك يدي كي لا انتزع منها ابرة السيروم (علمت فيما بعد ان ضغطي هبط قليلا ، فاضطروا لتغذيتي عبر إبرة تثبت في الوريد وكل هذا من اجل عملية صغيرة تافهة كانت نكتة المستشفى يومئذ)* سمعتها بالضبط تقول أمسكوا يدها . وصرخت بأن لا يد لي وانما زعانف فأنا سمكة .

---

* عملية إزالة حبة صغيرة في الجفن (شحاذ) - (جنجل باللهجة الشامية) ! . . .

وصرخت أطلب منهم أن يتركوني أسبح بسلام ، ولا يعملوني من غلاصمي وزعانفي ثم سمعت صوت رجل أحبه واحسسته سمكة مثلي ، وطلبت منهم ان يتركوني أسبح وإياه بحرية ، ثم بدأت ازداد وعياً بأصوات الذين يتحدثون حولي ، وبجسدي وبماهيتي البشرية ، وادركت مرة واحدة من انا وما أنا وتذكرت لم أنا هنا وانتهى الحلم المدهش ، والتجربة الجديدة المثيرة .

وهنا لا بد لي من شكر صديقتي التي كنت قد رجوتها حمل مسجل صغير ، سجلت فيه (تصريحاتي المائية) أثناء صحوي التدريجي من البنج . . . لقد سمعت الشريط وتذكرت يقيني المطلق لحظتها بأنني سمكة . وتذكرت أيضاً بحزن حادثة جرت في لندن أيام دراستي وكنت في السابق أضحك منها . . .

كنت وأخي ومجموعة كبيرة من رفاقنا بالجامعة نسهر ونحتفل بعيد رأس السنة ، حين جاء احد الرفاق بمكعب صغير من السكر . وقال إنه استطاع ان يصنع خلسة في المختبر الجامعي قليلاً من الـ (ال . اس . دي) المخدر المشهور ، وانه يعرضه لمن يريد أن يجربه . . . ولما رفضنا جميعاً (نعمة) عرضه ، ابتلعه مغتاظاً وبدأ يعب الخمرة ثم صار يقول إنه طير ، وهجم الى النافذة ليقذف بنفسه منها كي يطير ، وهجمنا نمسكه فازداد شراسة ، وتخلص منا بقوة عجيبة ، وركض الى سطح البيت وكلنا نركض خلفه ، ثم رمى بنفسه الى الهواء يريد ان يطير وكان صوته منتشياً (كصوتي في التسجيل وانا مقتنعة بأنني سمكة) ولكنه سقط على الارض وتحطم امام عيوننا جميعاً ومن يومها وانا اسميه عباس بن فرناس الانكليزي ، واتذكره وأخي على سبيل التندر . . مع غصة من الحزن والأسف .

اليوم ، وقد جربت بعضاً من طعم التخدير ، أحزن عليه بصدق بعد سنوات من مصرعه . واعتقد أن عالم التخدير وضحاياه بحاجة الى رؤية جديدة ملؤها التفهم والحنان . . . ولكن كيف ؟ .

بإرغام القضاة على تجربة (تخديرية)واحدة ، تكون بعضاً من قسمهم لتأدية واجبهم ؟ . . .

بسوق الجميع الى تجربة (تخدير إجبارية) ،لنكون أكثر قدرة على فهم أولئك المعذبين بيننا ، الذين يتكاثرون يوماً بعد يوم ويتضخمون ؟ . . . ويغرقون في عوالم المخدر بكافة أنواعه ؟

أم بالكف ـ على الاقل ـ عن طرح مآسيهم للتفكهة أو للاثارة أو للتشهير ؟ . . . ودراستها بحنان ، علمياً ومن الداخل ؟ . . .

غادة السمان

السباحة في بحيرة الشيطان

النهاية

جمع وتقديم

أحمد عارف

ahmadaref77@hotmail.com